اللّغة والفكر وجهان لعملة واحدة

الدكتور: حميداني عيسى

جامعة ابن خلدون ـ تيارت ـ الجزائر

لاتزال الدراسات الفلسفية بمختلف توجهاتها ومذاهبها قديما وحديثاً تعالج قضية اللغة والفكر وتحاول من خلال العديد من طروحاتها ونظرياتها أن تؤسس للعلاقة بينهما. فهل عملية التفكير مقرونة دائما باللغة في كل المواقف والحالات؟ أم أنه بإمكان الفكر أن يستقل بنفسه عنها؟ بل يمكن أن تثار هذه المسألة الفلسفية بشكل: آخر أليس الفكر واللغة وجهين أو مظهرين لعملية سيكولوجية واحدة، خاصة إذا علمنا أنّ اللغة خاصية إنسانية لا تعدو أن تكون أصواتاً يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم على حد تعبير ابن جني.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات؛ اللّغة؛ الفكر؛ النسبية اللغوية؛ العلامة اللغوية؛ العلامة اللسانية.

Language and Thought two Sides of the Same Coin

Abstract: Philosophical studies with its different ancient and modern orientations and doctrines are still dealing with the issue of language and thought, and attempting through many of its theses and theories to establish a relationship between them. Is the thinking process always associated with the language in all situations and cases? Or, is it possible for thought to be independent by itself from it? Rather, this philosophical issue can be raised/evoked in the form of: Another, are not thought and language two sides or aspects/manifestations of a single psychological process? Especially if we know that language is a human characteristic that is nothing more than voices in which every people expresses their purposes, in the words of Ibn Jini.

Keywords: Linguistics, language, thought, Linguistic relativity, Linguistic mark.

تعد اللغة الإنسانية من أهم المظاهر العقلية والاجتماعية المعرفية والانفعالية التي تميز الإنسان عن باقي المخلوقات الأخرى التي تقاسمه هذا الوجود، فلا عجب أنها الحامل المادي للكثير من المنجزات الحضارية التي ابتدعها، وأصبحت بذلك منهلا متدفقا للعديد من العلوم والاستكشافات في شتى الميادين المعرفية، بل بها تمايزت هذه المجتمعات البشرية منذ الأزل فاللغة عنوان حاضر بالأمس، ومستمر خاصة في ظل التطورات التي تحياها المجتمعات البشرية حاضرا ومستقبلا.

تاريخ تسليم البحث: 16 سبتمبر2016.

تاريخ قبول البحث: 04 جانفي 2017.

فإذا كانت اللغة بهذه المنزلة، كان من الأجدر العودة إليها لدراستها، ومحاولة تسليط الكثير من الأضواء لفهمها وفك رموزها، وبالتالي فهم هذه الظاهرة، فكانت موضوعا استفز التفكير وحرك الوجدان من لدن العديد من المفكرين والفلاسفة والمناطقة وعلماء اللغة أمثال "دي سوسير (F. D. Saussure)، وبلومفيلد (Bloomfield)، وشومسكي (Chomsky) من الأوربيين، والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وابن جني وغيرهم من العرب.

التصور الفلسفي للغة والفكر:

من منا لا يتذكر المقولة الشهيرة التي تؤسس للعلاقة بين اللغة والتفكير لـ "ريني ديكارت R. Descartes (1596-1650) "أنا أفكر، إذاً أنا موجود"[1]، فالتفكير باعتباره عملية عقلية بحته تؤكد على إنسانية الإنسان في هذا الوجود إذن فالفرق بيّن وبين الحيوان الذي لا يمتلك هذه الخاصية الفريدة حتى لدى الحيوانات التي توصف عادة بالمتطورة، لأن ليست هناك حيوانات بمقدورها تركيب خطاب، وليس مرد ذلك لغياب أعضاء النطق لديها، وإنما لغياب الفكر لديها «لقد لاحظ "ديكارت " نفسه أن اللغة خاصية إنسانية بحتة، حتى ولو في درجات دنيا من الذكاء و حتى في مستويات مرضية، يمكن التحكم في الأداء اللغوي، وذلك طبعا ليس في مقدور القرد مثلا »[2] . الفكر وفق هذا الطرح خاصية تخص الإنسان دون سواه، ولا عجب أن حملت الكثير من الآيات القرآنية الكريمة هذه الميزة، وأولتها الاهتمام اللازم بدليل توالي المدخل المعجمي "فكر" ومشتقاته المورفولوجية في كثير من آي القرآن الكريم، الذي يمهد الطريق السوي للعقيدة الصحيحة من خلال التدبر للآيات الكونية التي تبرهن –مما لا يدع مجالا للشك- على قدرته سبحانه وتعالى وعظمته وتفرده في الخلق. قال تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[3] .

أما إذا عدنا للمعاجم الفلسفية في هذا المجال، فإننا نلفي أنها تناولت قضية الفكر وعلاقته باللغة من زاوية ميتافزيقية، فالفكر بمفهومه الخاص تقديم شيء معين عقليا، أو بعبارة أخرى تقديمه بمعزل أو دون تدخل للمعاني، او بشكل عام فالفكر عملية تضم كل العمليات التي تتعلق بالنفس بدءا بالأحاسيس، وتذهب المعاجم نفسها على اعتبار الفكر هو عبارة عن إصدار حكم او الإدلاء برأي.[4] .

إن العلاقة بين الفكر واللغة ليس من السهل على الباحثين أن يلموا بكل حيثياتها ويقفوا على الجوانب الدقيقة بين هذين الوجهين للورقة او العملة الواحدة على حد تعبير رائد الدرس اللساني فرديناند دي سوسير «يمكن لنا أن نعقد مقارنة بين اللسان والورقة، فالفكر

وجهها الأول، أما الصوت فهو وجهها الثاني، فلا يمكن إذا أن نمزق الوجهة دون أخرى فكذلك بالنسبة للسان لا يمكن الفصل بين الصوت والتفكير، ولا الفكر عن الصوت ».[5] وحتى نهاية القرن التاسع عشر فان فقهاء اللغة (Philologues) يتفقون على تعريف اللغة على أنها تعبير عن الفكر، فلا معنى لأحدهما دون الأخر، فيشكلان ثنائية (Dichotomie) من الصعب إن لم نقل المستحيل الفصل بينهما لأنهما نشاط وفعالية ذهنية وليس الفكر كيانا مستقلا لوحده. ومن هنا لا يمكننا إدراك الفكر بمعزل عن الكلام الداخلي أو الخارجي «...فالكلمة تؤدي أو من المفترض أن تعطي صورة ما لفكرة معينة تمثّلها.» [6]

من هنا يتضح انه من العبث الفصل بين الفكر واللغة رغم الاتجاهات الفلسفية واللسانية التي حاولت أن تعول على طرف دون الآخر « فهما حركتان متبادلتان (...) يحاول الفكر أولا أن يبحث من خلال اللغة عن شكل يليق به، وثانيا تحاول اللغة ان تبحث من خلال الفكر عن حركة تشابهها» [7]

أما اللغة « كما بيّن ديكارت فهي خاصية إنسانية بحتة» فهي أوعية للمعاني التي تعبر عن الفكر، ولعل الوظيفة الأساسية التي تضطلع بها اللغة هي التواصل ونقل الأفكار، وليس معنى ذلك أننا نقصي الوظائف الأخرى التي تقوم بها اللغة كما سنبينه لاحقا، بل الوظيفة الأم للغة هي التعبير، وكثيرا ما نسمع "لقد خانته اللغة" أي لم يكن بمقدوره التعبير عما يختلج في صدره من أفكار ورؤى. ومن علماء العربية من كان سباقا لتعريفه للغة تعريفا حاز فيه قصب السبق قبل اللسانيين الأوربيين أنفسهم حيث قال في هذا المجال « أما حد اللغة فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[8]

إن اللسانيات كونها الدراسة العلمية للغة، فهذه الأخيرة هو الميدان الإجرائي لهذا العلم الجديد الذي تنفس في أجواء غربية مع بدايات القرن الماضي وظهر على رأس العلوم الإنسانية لأنه الكفيل بإعطاء التفسير العلمي للظاهرة اللغوية وهذا لم يكن مانعا بالنسبة للكثير من العلوم استثمار نتائجها المعرفية في اللغة كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وغيرهم وقد أورد جورج مونان (Georges Mounin) العديد من التعاريف الفلسفية للغة منه «أية وسيلة للتعبير عن الأفكار، أية وسيلة للتواصل بين البشر...»[9]

إنه من أجل النعم التي وهبها الله عز وجل للإنسان، هي قدرته على التفكير وإجراء عمليات عقلية معقدة عن طريق اللغة التي هي كفيلة بترجمة هذا النوع من العمليات، لان التفكير في حد ذاته يستدعي عددا وافرا من النشاطات العقلية، ذلك أن الإنسان مؤهل سلفا لاستعمال هذه الآلية في مسار حياته اليومية، إذ حينما نكتب رسالة ونهم على عمل ما أو يسترعي انتباهنا شيء ما، فإننا قادرون على ترجمة هذه الأفكار إلى العديد من الكلمات والجمل

على نحو خاص من كل ذلك فعملية التفكير تتطلب بالضرورة استحضار أمور عن طريق التخيل وأحداث ليس بالضرورة أن تكون موجودة بصورتها الفيزيائية في الواقع، بل قد نستحضر أحداثا ووقائع في الماضي القريب أو البعيد، فليس من وسيلة كفيلة بذلك إلا التفكير «الواقع أن مفردات اللغة ترمز إلى فكر، كل لفظة تشبه (كبسولا) يتضمن فكرة أو صورة ذهنية يرسخها الاختيار في العقل (...) فاللغة تسهل الفكر وتساعده على نموه، والفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة في نموها وتطورها فالتفاعل بينهما أمر واقع» (10)

لقد أصبح من الواضح -من خلال ما عرضناه- أن الحديث عن التفكير مع تجاهل اللغة أمر يعوزه التناغم إلى حد بعيد. فاصطلاحات النشاط اللغوي ليست ذات أهمية بالغة بالنسبة لتجارب تحقيق المفاهيم (concepts) لكنها الوسيط لكافة أنواع التفكير فالافتراضات يعبر عنها باللغة والمتكلم (le locuteur) يقدم من خلال حديثه جملة من المؤشرات لعمليته التفكيرية. من هنا أ ليس من الضروري أن نقرن اللغة بالتفكير؟.

العلامة اللغوية:

إن الحديث عن المفاهيم يجرنا للخوض في حقيقة العلامة اللغوية (Signe Linguistique) التي تقدم على الصوت اللغوي (Phone linguistique)، مما يجعلها متميزة ومختلفة عن باقي العلامات، فالعلامة اللغوية تؤكد على ظاهرة الاقتصاد في أية لغة إنسانية، لأنها تنوب عن الشيء وتغني عن إحضاره، مما يجعلها تختلف عن الإشارة، فهي ربط وإحلال لعلاقة بين أشياء مادية فيزيائية محسوسة ومدركة في العالم الخارجي وبين عمليات عقلية معقدة، فالعقل البشري مؤهل لإيجاد العلاقة بين الشيء وما يستدل عليه، ومن العلماء العرب من تنبه إلى ذلك منذ زمن طويل يقول الجرجاني« الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء أخر. والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول...» (11) ولعل من العرب الافذاذ من تنبه لحقيقة العلامة اللغوية قبل ألاف السنين وما توصلت اليه اللسانيات الحديثة، ولنقرا ما كتبه ابن سينا (428 هـ) في هذا السمت. « إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غابت عن الحس...ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه ») (12) . إن المتأمل لهذا القول يدرك تمام الادراك أن ما ذهب إليه ابن سينا في تفسيره لدلالة اللفظ لا يترك مجالا للمقارنة بينه وبين ما حفلت به اللسانيات السوسيرية خاصة فيما تعلق أو ما أصبح ينعت بالثنائيات اللغوية التي تمثل شبه قطيعة مع الفكر اللساني التاريخي والمقارن. إن العلامة ما هي إلا اقتران بين: دال/مدلول (signifié/signifiant)

أما في نظر ابن سينا فهي ثنائية المبنى تتكون مسموع اسم / معنى. ملغيا بذلك من مفهوم العلامة الواقع الخارجي أو المرجع (Référent) الذي تميل إليه العلامة وذلك ما فعله دي سوسير أيضا.

إن العلامة اللسانية في نظر دي سوسير هي وحدة النظام وهي العنصر اللساني الذي يتكون من صورة سمعية (Image Acoustique) ومفهوم (Concept) أي الفكرة التي تقترن بالصورة السمعية فعلى سبيل المثال كلمة "جمل" هي علامة لسانية مكوّنة من صورة سمعية وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات (ج-م-ل)، ومفهوم وهو مجموع السمات الدلالية للجمل - (حيوان، يعيش في الصحراء، له سنام...) . «فالعلامة توحد بين مفهوم وصورة سمعية وليس بين شيء واسم، وللإشارة فإن الصورة السمعية ليست الأصوات المادية بخصائصها الفيزيائية؛ وإنما هي البصمة النفسية (l'empreinte Psychique) للصوت» [(13)] ثم يصرّح دي سوسير في السياق نفسه دفعا للغموض (L'ambiguité) « بالإبقاء على مصطلح العلامة للدلالة على الكل وتعويض المفهوم والصورة السمعية بلفظيين دال ومدلول، لأن أفضلية هذين اللفظيين أنهما يدلان على المواجهة (l'opposition) التي تفصلهما سواء فيما بينهما أو من الكل الذي يجمعهما»[(14)] .

لا يخفى على أي دارس خاصة في مجال البحث اللساني، وتحديدا للعلامة اللغوية بانها تمثل النظام التواصلي الذي يحقق النزعة الاجتماعية للإنسان من حيث هو كائن حي اجتماعي وهو الوسيلة الجوهرية التي-لا مناص من استخدامها- بالنسبة للبشر وهذا ما أشار إليه "ابن سينا" (428 هـ) في قوله: «لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة، انبعثت إلى اختراع شيء يتواصل به ذلك (...) فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معا ليدل بها على ما في النفس من أثر، ثم وقع اضطرار ثان إلى إعلام الغائبين من الموجودين في الزمان أو المستقبلين إعلاما بتدوين ما علم، فاحتيج إلى ضرب آخر من الإعلام غير النطق فاخترعت أشكال الكتابة»[(15)] . إن الكتابة على مختلف أشكالها تشهد على أن الإنسان القديم قد اتجه إلى التحليل البسيط جدا لبـنية (Structure) لغته. وللوصول إلى الكتابة الهجائية، كان من اللازم معرفة الوحدات الصغرى التي تجسد هده الحروف، والتي تسمى اليوم في الدراسات اللسانية "بالفونيمات (Phonèmes)" «إن الذين اخترعوا الكتابة وحسّنوها، هم من أكبر اللسانيين، بل هم الذين أوجدوا اللسانيات»*[(16)] .

لقد أصبح من الواضح أن إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر قد فتحت الباب واسعا لإثراء هذه القضية ومناقشتها من قبل الكثير من الفلاسفة والمناطقة واللسانيين المعاصرين،

فنحن اليوم أمام زخم من الآراء المتناقضة حينا والمتفاوتة حينا آخر، بالنظر أولا لطبيعة اللغة البشرية «التي تحولت في ذاتها لمولد للأحاسيس والعواطف والأفكار...»[17]، والتي تزخر بعدد هائل من الكلمات والمفردات التي تختزنها المعاجم، والتي تعبر عن نمط خاص من التفكير، ولكن من الواجب أن يكون للمتكلم المعلومات الكافية لكيفية نطقها، فهذا أمر ضروري للمتكلم والمستمع (l'auditeur) على حد سواء[18]. فهل يجب أن نقرن بين عملية التفكير باللغة دائما في كل المواقف والحالات؟ أم أنه يمكن للفكر أن يستقل بنفسه عنها؟ بل يمكن أن تثار هذه المسالة الفلسفية بشكل أخر أليس الفكر واللغة وجهين أو مظهرين لعملية سيكولوجية واحدة كما بينا فيما سبق، يقول عبد السلام المسدي وهو يناقش هذا المنحى « وأكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة وعلم النفس، وللعلماء فيها آراء مختلفة وأحيانا متناقضة، ويدعو إلى التناقض حرص المشتغلين بحل هذه القضية على إيجاد جواب حاسم، فهل هناك فكر مجرد بدون رموز أم لا؟ الظاهر إلى وقتنا هذا المسألة لا تتحمل الجزم سلبا أو إيجابا»[19].

إن العلامة اللغوية كما اوضحناه سلفا ما هي إلا تجسيد ذهني للعالم الفيزيائي الذي يحيط بنا، ومناط ذلك هو النظام اللغوي (Système linguistique)، ولكي نتمكن من فهم كنهه وهذا الترابط الذي يحكمه، لزاما علينا العودة إلى دراسة المفاهيم، لأنها –حسب علمنا – مكونات أساسية لاغنى عنها للفكر، بل هي بمثابة أحجار يتم بواسطتها بناء الفكر.

طبيعة المفهوم:

تعد المفاهيم المختزنة في ذاكرتنا الدلالية (Mémoire Sémantique) المادة الخام التي نستخدمها في التفكير، ويعتبر هذا الأخير مسالة تكوين ارتباطات وعلاقات جديدة بين مفاهيم مثل (منزل، خروف، احمر...)، فيمكن أن نضع حدا بين هذه المفاهيم الأساسية، وتحقيق مفاهيم جديدة « لان الفكر اللغوي عمل غريزيا، من خلال لغة الأمومة أو لغة مسقط رأسه، على بلورة كل المعطيات والمفاهيم مجردة ومجسدة، حسب الحالات المتصلة بالعادات اللغوية في لحظة لاواعية وهكذا أصبحت لديه بمثابة الصورة التي يشكلها الفكر عن الوجود»[20] إذا فالإنسان ليس مخيرا على اكتساب العدد الهائل من المفاهيم من خلال لغة مسقط رأسه مع مراعاة الفكر اللغوي الذي بلور كل هذه المفاهيم. ما يمكن العودة إليه هاهنا هو كيف يكتسب الإنسان هذا الكم من المفاهيم في عمر زمني وجيز، فالطفل مثلا يستطيع أن يدرك مفاهيم تتصل بحياته اليومية اتصالا وثيقا، ولا أظن انه يجهل مفاهيم أولية خاصة متعلقة بجوانب بيولوجية كالأكل والنوم والمشي واللعب وغير ذلك، لكنه يجهل بعض المفاهيم الأخرى التي لا تناسب نموه الفيزيولوجي والعقلي كأن تسأله عن معاني المفاهيم المجردة كالديمقراطية، الحرية والمسؤولية...لذا ينصح بإثراء النقاش حول المسائل المتعلقة باللغة ذاتها خاصة الطفل ما قبل

سن التمدرس «لقد أظهرت ملاحظات أجريت مؤخرا المكانة الأساسية التي تشغلها المناقشات حول اللغة في السلوك الكلامي في مرحلة ما قبل المدرسة. فاللجوء إلى ما ورائيات اللغة ضروري لاكتساب اللغة وفي الوقت نفسه لحسن سيرها الطبيعي، والقصور في القدرة على التسمية هو خسارة لما ورائية اللغة».[21]

إذا فالمفاهيم هي ما ندركها ونعرفها من خلال مجموعة من الميزات المشتركة، وخصوصية شكل من الأشكال الخارجية لها، فنتخذه مفهوما لشيء معين، يمكن ان نسميها حينئذ " المفاهيم الدلالية" (les Concepts Sémantiques) .

التدرّج في المفاهيم:

إن معرفتنا للمفاهيم من خلال مكوناتها وميزاتها، يجب أن تعقبه أيضا ادراك ماهية العلاقة التي تربط بعضها ببعض، إذ أن الخصائص العامة لأي مفهوم من هذه المفاهيم قد تبدو لأول وهلة غير دقيقة، فتعوزها الدقة. من هنا جاءت العديد من الدراسات في مجال علم النفس التجريبي (Psychologie expérimentale) واللسانيات محاولة تقديم التفسير الكافي للاستعمال التدريجي للمفاهيم (Hiérarchiques) . إن خلاصة هذه الدراسات انه يمكن أن نسند لمبتدأ واحد جملتين أو عدة جمل فنقول مثلا: القطاة طائر. ونقول في الثانية: القطاة حيوان. من هنا وجب أن نحدد ما إذا كانت إحدى الجملتين صحيحة أم خاطئة، ومعيار ذلك انه كلما كانت الجملة بسيطة، كانت نسبة الخطأ المحتمل قليلا، بينما إذا أسندنا الفعل "تبحث" للجملتين السابقتين، فان المفهوم ينتقل مباشرة من المبتدأ الأول "القطاة" إلى المفهوم الثاني "الطائر"، ورب سائل: كيف ذلك ؟ لأنه بنظرة خاطفة يبدو أن الطريق لمعرفة المفهوم "الطائر" في الجملة الأولى يتخذ محطتين قبل أن يترسخ هذا المفهوم.

وبهذا يبدو لنا أن المبتدأ يأخذ شيئا من الوقت حتى نعرف الطريق التي تربطه بالمفهوم، ومن هنا جاءت لنتائج لتؤكد صحة هذه الوضعية، إذ أن وقت اتخاذ القرار يزداد بالنظر إلى المسافة بين المفاهيم من حيث التدرج.

فرضية النسبية اللغوية (Hypothèses de la Relativité Linguistique):

نحن نعتقد- ككل الباحثين -أن اللغة ماهي إلا تعبير عن الفكر، بل هي عاكسة لبنيته، لكن ما يلاحظ من حين لأخر أن الباحثين يصوغون هذه العلاقة (اللغة والفكر) بطريقة أخرى، ويقدمونها بمنحى أخر، فان كانت اللغة –كما أوضحنا –تحدد الفكر، فان العكس غير وارد إطلاقا.

إن النسبية اللغوية كمصطلح استخدم لوصف أكثر الروايات تطرقا لوجهة النظر القائلة بان اللغة تحدد طريقة تفكيرنا، ولربما كان احد أقوال Whorf أقرب إلى درجة الصواب

حين زعم ان الناس يعيشون أسرى اللفظ مشيرا بهذا الاسر الى اننا «ندرك قوانين لغة الأم منذ طفولتنا المبكرة على نحو تلقائي أي بطريقة غير واعية ونحن نكتسب معها وفي نفس الوقت وبطريقة غير واعية أسلوبا نوعيا ومتميزا للتفكير كما نكتسب "ميتافزيقيا " باطنية خافية»[22] .
وقد اهتم وورف (1956) بالطريقة التي تؤثر بها المسميات اللغوية على التفسيرات الإدراكية، متأثرا بآراء أستاذه "سابير (Sapir) في مجال البحث اللساني الانثربولوجي (Linguistique Anthropologique) - التي سيكون لنا معها وقفة مطولة لأنها نواة هذا البحث في نهايته- من خلال الدراسات الميدانية للوسط الثقافي واللساني للهنود الحمر« لقد اقتفى "وورف" اثر أستاذه سابير اذ كان تلميذه ومساعده في الانجازات العلمية التي حققها في مجال البحث اللساني والانثربولوجي، فأفاد "وورف" من هذه الدراسات واستغل هذا الرصيد المعرفي في الدراسات الشالة التي قام بها في الوسط الثقافي واللساني للهنود الحمر، فتوصل إلى مجموعة من النتائج العلمية التي أصبحت تنعت فيما بعد بفرضية».[23]

لقد افترض "وورف" إن شكل المفاهيم وإدراكها يكون خاضعا لها، أو للغات التي نتكلمها، ومن المنطق أن الشعوب التي تتكلم بلغات مختلفة، حتما ستتباين نظراتها للعالم الذي تعيش فيه، بل إن هذه الفرضية النسبية اللغوية تؤكد على نسبية الفكر بالنسبة للغة المستعملة من اجل التواصل، وهي فكرة-فيما نعتقد-صائبة « ومن الأفكار التي نادى بها وورف عن التمييز البارع في رؤية العالم كنتيجة للطريقة التي يتم بها التعبير عن علاقات المعنى من خلال قواعد النحو في اللغة (...) الميل بصورة طبيعية في اللغة الانجليزية إلى التفكير في الأسماء على أنها أشياء وفي الأفعال على أنها أنشطة...»[24]

لقد نالت معطيات الفرضية الوورفية "نسبة إلى وورف" حظا من المعالجة العلمية من قبل علماء النفس التجريبي واللسانيين وخاصة المهتمون بالدراسات الانثروبولوجية، وتوصلت إلى نتائج ميدانية مشجعة « فالفرنسي ليس بمقدوره اللغوي أن يعين لفظة "الثلج " إلا عن طريق هذه الكلمة، لكن الاسكيمو" les esquimaux" يمكنه أن يعبر عن المفهوم نفسه ب"أربع كلمات"، ويستطيع المتلقي أن يميز بين هذه الأنواع للشيء ذاته، كذلك الفرنسي لا يمكنه استعمال إلا كلمة واحدة بالنسبة "الأرز" وهي "le Garo"، لكن سكان برمانيا "la Birmanie" يوظفون عددا من المفردات لهذا المحصول تبعا لخصائصه.»[25]

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الإطار هو ما إذا كان الأمر حقا هو "إدراك" الأشياء بطرق مختلفة، أو ما إذا كانت المسالة أننا نتحدث عنها بطرق مختلفة ومن الأمثلة المثيرة التي غالبا ما تساق « هو المثال المتعلق بالهنود الهوبي (Hopi Indians) الذين يستخدمون كلمة واحد للإشارة إلى الحشرة، وأخرى للإشارة إلى الطائر أو الطيار، وعلى الجانب الآخر يستخدم الاسكيمو

العديد من الكلمات المختلفة للأنواع المختلفة من ندف الثلج، وهناك أيضا اختلافات في الطريقة التي تسمى بها الألوان في اللغات المختلفة»[26]، ولكن السؤال الذي يظل مطروحا في كل هذه الحالات، هو ما إذا كان الاسكيمو مثلا يرى بالفعل أنواعا أكثر من ندف الثلج، والهوبي لا يستطيع فعلا أن يرى أي اختلاف بين الحشرة والطيار.

إن الهوبي يعبرون عن أشياء مثل البرق، اللهب ودفعات الدخان على أنها أفعال، أما فيما يخص الأزمنة، فان لديهم نهايات مختلفة للأفعال تتشكل طبقا لدرجة تأكد المتحدث من حادثة ما، وما إذا كان قد رآها بالفعل أم انه قد سمع بها فقط...ويظل السؤال مطروحا: هل حقا يفكر الهوبي بطريقة مختلفة ؟وهل هناك ما يبرر ادعاء" ورف" بأنه ليس لديهم إدراك موضوعي للفترات الزمنية...ومن ثم تكون أفكارهم مختلفة تماما عن أفكارنا[27]. الهام من خلال هذا الطرح،، إن الأفكار يمكن أن نعبر عنها بوسيلة وحيدة وهي اللغة، وهذه الأخيرة هي التي تشكل الفكر، ونحن نقسم العالم بناء على الإطار العام الذي يحدده النموذج اللغوي سلفا[28]

اكتساب المفاهيم لدى الأطفال:

إن البحث في مثل هذه المواضيع التي تتصل بظاهرة الاكتساب المفاهيم الدلالية لدى الطفل ليس بالأمر الهين، مما جعله مناط اهتمام للعديد من العلماء والباحثين عربا كانوا أم غربيين، بالنظر إلى العوامل المتداخلة النفسية والاجتماعية والثقافية...التي تشرف على ذلك، ولعل العبرة بالبداية التي يتوقف عليها مسار حياة برمته، آخذين بعين الاعتبار " الطفل صفحة بيضاء ". انطلاقا من هذا تتضافر الجهود البيئية والتعليمية والتربوية على تلقين الطفل اكبر عدد ممكن من المفاهيم التي تشكل نواة اللغة.

لقد بات من الواضح أن الطفل في السنة الأولى من عمره تقريبا، يبدأ في معرفة بعض الأشياء، خاصة المحيطة به، وليس من المستبعد أن تكون تلك المفاهيم ضيقة في الحدود الأسرية، فضلا على الحيوانات الأليفة التي تقاسمه البيت، لكنه رغم ذلك عاجز على تسميتها «إن الشرط الأساسي لحصول ذلك التطور هو التعاون بين الطفل والراشد والاحتكاك المتواصل بينهما، حيث يأخذ بيده لكي يفتح عينيه أمام الموجودات فيتعامل معها...»[29] لكن عبر مرحلة النمو الحسي الحركي التي يتعرض لها الطفل في سن معينة، واخص بالذكر مرحلة "بداية الكلام " التي لا يمكن أن تحدث دفعة واحدة، أي بإمكان بنت في الثالثة من عمرها أن تكتسب مفاهيم لأنواع مختلفة من الألوان، وان تدرك أيضا أن المفاهيم هاته، ماهي إلا أسماء لأنواع شتى، لكنها تجهل تماما ما يوافق لون معين من لون آخر، ولو طلب منها أن تصف لونا ازرق مثلا، يمكن لها أن تصفه بغيره، فتقول مثلا "أحمر" «واغلب الظن أن الطفل قلّما

يستعمل الكلمات الأولى للإشارة بها إلى مدلولاتها، لان الأشياء لا تعنيه إلا بمقدار ما تحوم حول ذاته، ولذلك فهو ينظر إليها من خلال نفسه، أي من خلال رغباه وحاجاته»[30].

من المتعارف عليه في الدراسات النفسية، أن الطفل في هذه المرحلة يميل إلى استعمال لغة المحسوسات (بل يجد صعوبة جمة في تعلم الأشياء المجردة (Abstraits) كما بينا ذلك سلفا تقول الدكتورة كريمان بدير « تتميز لغة الطفل في هذه المرحلة بالتمركز حول الذات (égocentrisme)، ويغلب عليها لغة المحسوسات ويلاحظ القصور والاختلاف في مفاهيم الأطفال عن مفاهيم الكبار، لذلك نجد أن استخدامهم للكلمات يكون غير دقيق، ويظهر تكرار الكلمات والعبارات في أحاديثهم...»[31]

لا يمكن أن نتغافل الدور الفعال الذي يضطلع به المحيط في اكتساب المفاهيم الدلالية بالنسبة للطفل، ومن هنا يكوّن هذا الأخير مجموعة من الفراضيات. قد يسمع مثلا كلمة "كلب" فتنطبق الصورة السمعية لهذا الحيوان في دماغه من خلال جملة من الصفات التي تشكل هذه العلامة اللغوية "حيوان، له أربعة أرجل، يتحرك، أليف..."، ونظرا لقلة الإدراك لديه في هذا العمر، فانه يمكن أن يعمم هذا المفهوم على كل من "القط أو البقرة وشيء من هذا القبيل، ثم تأتي مرحلة متقدمة أدق من الأولى، حينها يبدأ الطفل في التمييز بين الميزات الفارقة التي يمكنه أن يضيفها إلى المفهوم الأول، إذ يدرك أن القطة تموء (المواء) بينما البقرة تخور (الخوار) . وهكذا فالطفل أثناء بلوغه السنة الرابعة من عمره، يدخل مرحلة جديدة، حيث تبدأ ظاهرة التعميم في استعمال المفاهيم تنحصر وتتلاشى شيئا فشيئا. ويمكن تلخيص هذه التحولات على مستوى المفاهيم لدى الطفل في: «التقدم من المفاهيم البسيطة نحو المفاهيم المعقدة

. التقدم من المفاهيم غير المتمايزة نحو المفاهيم المتمايزة.

-التقدم من المفاهيم المتركزة حول الذات نحو المفاهيم الأكثر موضوعية.

-التقدم من المفاهيم المادية المحسوسة والخاصة نحو المفاهيم المجردة والمعنوية والعامة.

-التقدم من المفاهيم المتغيرة نحو المفاهيم الأكثر ثباتا.»[32]

إن المفاهيم الدلالية التي سبق معالجتها ومناقشتها، على الرغم من الأفكار البسيطة التي تحتويها، لكن هذه المفاهيم أن تتواصل فيما بينها، وانطلاقا من ذلك مع مراعاة نمو هذه المفاهيم من البساطة إلى التعقيد، هل يمكن القول أنها تعقد تواصلا فيما بينها ؟ وللإجابة عن هذا السؤال، وجب العودة إلى اللغة باعتبارها الشكل الرئيسي والأساسي لعملية التواصل.

المفاهيم على مستوى الجمل (Concepts des Phrases):

لقد أضحى من البديهيات في الدراسات اللسانية الحديثة بمختلف أنواعها واتجاهاتها، أن دراسة اللغة – أية لغة إنسانية – للوقوف على محصلتها المعرفية وخصائصها التركيبية والمورفولوجية والدلالية لابد أن تقوم على حد أدنى من التعبير المفيد الذي يضمن التبليغ والتواصل بين المتلقي والمتكلم، وهذا التعبير المفيد هو ما اصطلح على تسميته بـ"الجملة" التي تعد وحدة لسانية قائمة بذاتها تتركب من أجزاء لسانية تحكم بنيتها لتجعل منها نظاما تربطه علائق دلالية، فهي المرتكزات الأساسية المتمثلة في جملة من القضايا اللغوية. «الجملة في تعريف النحو التقليدي هي عبارة عن وحدة من المعاني التي تصاحب المشافهة (...) أما كتابة فتتجلى من خلال الرموز الكتابية كالنقطة في نهاية الجملة في اللغة الفرنسية »[(33)]، ولعل تعريف الجملة اخذ حيزا كبيرا من الشروحات، بالنظر إلى تعدد الرؤى، وهذا ما جعل جورج مونان يقترح لها خمسة تعاريف في معجمه المعروف "معجم اللسانيات "وسنكتفي بإيراد القليل منها «يوجد على الأقل خمسة تعاريف مختلفة لمفهوم الجملة: الجملة هي عبارة عن ملفوظ تام من حيث المعنى أو هي عبارة عن مقطع من السلسلة الكلامية مستقلة سانتاكسيا أو تركيبيا، أو هي وحدة لسانية مكونة من مسند إليه ومسند...»[(34)]، ويذهب أصحاب "معجم اللسانيات الحديثة إلى تعريف الجملة بقولهم « هي مجموعة من المكونات اللّغوية مرتبة ترتيبا نحويا بحيث تكون وحدة كاملة في ذاتها، وتعبر عن معنى مستقل، وبذلك يظهر فيها النظام النحوي الخاص بلغة من اللغات»[(35)]. قد يوعز هذا الاختلاف البين بين التعاريف اللسانية لمفهوم الجملة – في اعتقادنا – إلى تعدد النظريات اللسانية الحديثة، التي صار هذا المفهوم من أمهات القضايا اللسانية، وعليها تقوم مستويات التحليل اللساني، وتمثل البنية الأساسية التي تعود إليها كل الإشكال اللسانية الأخرى.، وبالعودة إلى التعريف السابق للجملة من وجهة نظر يتضح مفهوم الاستقلالية (Indépendantisme) ليفرض نفسه على مفهومها: أي ان تكون الجملة ذات استقلالية تامة من حيث المبنى على المستوى الصوتي (Phonétique) والصرفي المورفولوجي (Morphologie) ثم يضاف إلى ذلك المستوى التركيبي (Syntaxique) من اجل غاية وهي المعنى المفيد أو التبليغ، لان الإفادة هي الغاية المنشودة من الكلام، والكلمة هي بنية الجملة التي هي الوحدة الأساسية في الاتصال والتفاهم حتى توصف بهذا المفهوم الذي تناوله فارس الصوتيات ابن جني (392 هـ) ([36]قائلا: «وأما الجملة فهي كل كلام مفيد مستقل بنفسه، وهي على ضربين جملة مركبة من مبتدأ وخبر، وجملة مركبة من فعل وفاعل»[(37)]، ولا يقف الأمر عند هذا الحد،، بل يجب أن تعبر عن معنى معين (Signification) .

يبدو مما سبق ان الأشكال التي عالجناها خاصة على مستوى "الجملة" أنها كانت عبارة عما تتضمنه من قضايا ومفترضات وهذه الأخيرة مجالها محدد، بحيث لا تخرج عن إطار اللغة،

لكن لا يقتصر التعبير عن المفاهيم المختلفة عليها، إذ يمكن ان تتعداها إلى أشكال أخرى، فيتجلى الفكر عبر صور بصرية (Images Visuelles) الكثير منا اعتقد في أحيان عدة أنه يفكر بطريق بصرية، يسترجع من خلالها المدركات الداخلية، أو وحدات من هذا النوع، وثم يتم توافقها وتركيبها بحسب صيغ جديدة. وهنا يمكن ان نفترض ان عملية إدراك الأشياء من حولنا تتم جملة لا تفصيلا، وان العين تنجذب للشكل العام، كما يمكن افتراض ان الإدراك يتم تفصيلا، وأن حاسة البصر تنساق للجزئيات، وتتعرف على الكلمة بعد تحليلها إلى عناصرها.

يعتبر الكثير من الدارسين والمهتمين بالمجال الإجرائي لعلم النفس التجريبي (Psychologie Expérimentale)، إنه من الممكن ان تجد الطريقة السهلة لحل مشكلة ما اعتمادا على التفكير البصري مقارنة بالتحليل الكلامي. «والوجود في الأعيان والأذهان لا يختلف بالبلاد والأمم، بخلاف الألفاظ والكتابة فإنهما دالتان بالوضع والاصطلاح»[38] فالعين حاسة مهمة لا غنى عنها في إدراك الأشياء على حقيقتها، بل كل الحواس. فلقد كان الإدراك الفكري البصري دافعا قويا للكثير من الإبداعات في تاريخ الإنسانية، من رجال العلم والفنانين، وفي تخصصات كالرياضيات والفيزياء، وحسبنا دليلا على ذلك، الفيزيائي الشهير صاحب النظرية الفيزيائية "ألبرت اينشتاين" (A-Einstein) الذي قال انه من النادر بالنسبة إليه التفكير بواسطة الكلمات، وقد طور مدركاته الذهنية على شكل صور على الأقل واضحة بينة التي يمكن لها ان تنتج وتركب إراديا، ومن الأمثلة البارزة في هذا المنحى، نكتشف في مجال الكيمياء "فريدريش كوكيلي (Friedrich Kekulé) كان ملزما بتوضيح وتفسير بنية جزيئات البنزين (Les Molécules de Benzène*)، في ليلة حلم بشكل يشبه الأفعى وهو يدور في شكل دائري حول نفسه، وهو بذلك يرسم صورة أفعى وهي تعض ذيلها، وهنا تفطن واكتشف ان بنية الأفعى هي البنية نفسها للبنزين، تلكم صورة متعلقة بالحلم، ومستمدة منها جعلت الحل ممكنا لمشكل علمي هام.[39]

نخلص مما سبق ان لحاسة البصر دور مهم لا يقل أهمية عن الحواس الأخرى خاصة في إدراك الموجودات على حقيقتها دون أن نغفل في ذلك علاقة البصر بالذكاء.

مراجع البحث وإحالاته:

1-" -Je pense Donc je suis"

2- N-Chomsky- Langage et Pensée" TRAD , Jean-Louis Calvet ,éd Payot ,1969, , P24

3 سورة يونس: الآية: 24

4 - Paul Foulquié "Dictionnaire de la langue Philosophique "Presses universitaires de France. 1ere éd 1962 P522-523

5 - F-de Saussure "Cours de linguistique générale" P157

6-Oswald Ducrot " la structuralisme en linguistique "éd du seuil 1968 P18-

-"ILexiste entre la pensée et le langage deux mouvements réciproques tantôt c'est la pensée qui cherche dans le langage une forme qui lui répondre ;et tantôt le langage qui cherche dans la pensée une action qui l'égale"

7 -Paul Foulquié "Dictionnaire de la langue Philosophique" P522-523. 7

8 - ابن جني "الخصائص "، تح محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، لبنان 1983، ج1ص33

9 " - n'importe quel moyen de communication entre les êtres vivants " "Moyen quelconque d'exprimer des idées- "Georges Mounin "clefs pour la linguistique "éd ,Seghers ,Paris 1968 P5-

10 - المسدي "اللسانيات من خلال النصوص " ص125-126

11 - الشريف الجرجاني - التعريفات، ضبط وفهرسة محمد بن عبد الكريم القاضي، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1991 ص 109

12 -ابن سينا –العبارة من كتاب الشفاء، تح محمود الخضيري، القاهرة 1970، ص1-2.

13- F-de Saussure "Cours de linguistique générale" ,P98

14- IBID ,P99

15 -ابن سينا –العبارة من كتاب الشفاء، ص1-2.

* les hommes qui ont inventé et perfectionné l'écriture ont été de grands linguistes ,et ce sont eux qui ont créé la linguistique".

16 - Georges Mounin :clefs pour la linguistique P22

17--Francis Tollis" La parole et le sens" Armand collin éditeur. Paris 1991 , P183

18- EDWARD MATTHEI et autres "INTRODUCTION a la psychologie " trad par Ranka Bijelgac. Bordas ,Paris 1958 ,P152

19 -عبد السلام المسدي " اللسانيات من خلال النصوص " ص125-126

20 -عبد الجليل مرتاض "في رحاب اللغة العربية، ص35

21 -فاطمة الطبال بركة "النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون " ص163

22 -عبد الجليل مرتاض "في رحاب اللغة العربية"، 35.

23 -أحمد حساني " مباحث في اللسانيات "، ص19

24 -جوديث جرين " التفكير واللغة " تر عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية للكتاب 1992، ص118.

25 -EDWARD MATTHEI et autres "INTRODUCTION a la psychologie ,P 153

26 - جوديث جرين " التفكير واللغة 116

27 -ينظر جوديث قرين، المصدر السابق، ص118

28 - ينظر أحمد حساني –المصدر السابق- ص20

29 - حنفي بن عيسى " محاضرات في علم النفس اللغوي "، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2003/5، ص129.

30 - حنفي بن عيسى " محاضرات في علم النفس اللغوي "، ص 139-140.

31 -كريمان بدير " الأسس النفسية لنمو الطفل " دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط1، 2007، ص: 65.

32 - كريمان بدير، المرجع السابق، ص140-141

33- - jean Dubois ET Autres "Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du Langage ,P365

34 -Georges Mounin "Dictionnaire de la Linguistique"PUF ;4EME éd 2004. P266

35 -سامي عياد وآخرون "معجم اللسانيات الحديثة "، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1997، ص129.

36 - إن مصطلح علم الأصوات أو الصوتيات مصطلح عربي أصيل، لا يخالطنا أدنى شك في ذلك، وعلة ذلك: استعمال مدلولاته في الاصطلاح الصوتي بدقة علمية متناهية عند العرب القدامى، يقول ابن جني (392 هـ) «ما علمت أن أحدا من أصحابنا قد خاض في هذا الفن، ولا أشبعه هذا الإشباع ». فهو مبدع هذا الفن ومؤسس هذا المصطلح المنعوت حاليا في الدراسات اللسانية ب: (Phonétique) . ذلك أن كتبه الجليلة « سر صناعة الأعراب والخصائص » و غيرهما تؤكد بكل جلاء ووضوح هذه العبقرية الفريدة.

37 -ابن جني " اللمع "، تح: حسين محمد محمد شرف، القاهرة 1979، ص110-111.

38 -ينظر أبو حامد الغزالي"معيار العلم في المنطق"، دار المعارف مصر (1969) ، ص75-76.

39-Ernest R. Hilgard et Autres "Introduction à la Psychologie" TRAD;David Bélanger ,édit Etudes vivantes,Paris;1980,P314-315.

*Benzène: liquide incolore. volatil. combustible ;obtenu du petrole ou de la houille;premier terme (C6 H6)de la série des hydrocarbures aromatiques ou cycliques. composant (carb+hydro) .